من علماء الاجتماع العراقيين الذين شيّدوا أفكارهم اعتماداً على ما خلفه علي الوردي، الأكثر شهرة من هذا المجال، إلى جانب النظريات العلمية التي استقاها من مدارس أوروبية. كتبه ودراساته وبحوثه تدور بمعظمها في محور تحليل الشخصية العراقية، استناداً إلى التاريخ والهوية والروافد التاريخية الملحقة بها. اليوم، يأتي كتابه «الشخصية العراقية... البحث عن الهوية» (دار التنوير) ليصبّ في مجرى المسار الذي كرّس له مجمل حياته

تقديم وحوار **جمال حيدر**

ـية... وتشوّهات الشخصية العراقية

وارتفاع نسبة البطالة وازدياد القحط والمجاعة. لا بد من القول بأنّ الحصار أهان كرامة العراقي، وأضعف هيبة الدولة، وحطّم الجيش وهيأ لاحتلال العراق. في الحقيقة، فإنّ هزيمة الجيش العراقي في الكويت بلورت نهاية النظام. ورغم أن الشخصية العراقية متسامحة وحية ومسالمة بطبيعتها، ولها قابلية على تحمل المشاق، واهتمام بالأدب والفن والشعر، ومتعلقة بالأرض، لكنّها ـ بسبب ما تعرضت له ـ أصبحت مشوهة ومفككة ومنكسرة ومستلبة ومنقسمة على ذاتها: شخصية متسلطة قمعية وأخرى عاجزة نكوصية.

■ دوامة العنف التي ما انفكت تدور وتطحن المجتمع العراقي منذ عقود لغاية أحداث الموصل الأخيرة، ما أسبابها؟

- منذ قرون، كان العراقيون وما زالوا ضحايا الاستبداد والعنف والقهر والقمع. أصبح العنف إرثاً ملازماً لهم، ابتداء من حكم نبوخذ نصر، مروراً بمأساة كربلاء وطغيان الحجاج واستبداد المنصور والسفاح وهجوم المغول، واستباحتهم لبغداد، والصراع الدامي بين العثمانيين السنة والصفويين الشيعة لاحتلال العراق، وحتى اشكال الاستبداد والقمع والحروب والحصار والمقابر الجماعية التي خلّفها نظام صدام حسين، وانتهاء بالاحتلال الغاشم، وما أفرزه ويفرزه من فوضى ودمار وصراعات اثنية ودينية وطائفية تهدّد حاضر العراق ومستقبله. كذلك الأعمال الارهابية ذات الايديولوجية التكفيرية لـ «داعش»، دمّرت بشكل منظم التاريخ والتراث والذاكرة الثقافية، واستباحت الأعراض، بخاصة من الأقليات الدينية، وسبي نساء الايزيديات وبيعهن في أسواق العبيد في أكبر عملية استعباد جماعي في القرن الحادي والعشرين. من الطبيعي أن تتأثر الشخصية العراقية بهذه الظواهر التراجيدية وتجعل سلوك الفرد العراقي متناقضاً ومزدوجاً، قلقاً ومتوتراً ومستلباً وغير مستقر، تلفه مسحة من الحزن والأسى، التي تنعكس جلياً في اساطيره وأشعاره وأغانيه، نتيجة الصراع المحتدم مع الطبيعة من جهة، ومع السلطات من جهة أخرى، ومع الآخر من جهة ثالثة.

العنف ثقافة، وهو تطبّع واكتساب. تاريخ العراق الحديث يؤشر إلى أساليب متنوعة من العنف والقسوة. فقد تم قتل الملك فيصل الثاني والوصي عبد الاله ونوري السعيد وغيرهم خلال ثورة 14 تموز 1958، وقامت الغوغاء بسحل قتلى في بغداد والموصل وكركوك عام 1959. كما قتل الزعيم عبد الكريم قاسم بقسوة، وأُعدم سكرتير وعدد من أعضاء الحزب الشيوعي وكثير من المحسوبين على اليسار عام 1963. وأبيد مئات الألوف في عمليات الانفال وحلبجة والمقابر الجماعية. وقد استخدمت أبشع أشكال العنف بعد هزيمة العراق في الكويت، ثم خلال الانتفاضة الشعبية عام 1991. وقد ازداد العنف والقسوة والإرهاب بعد سقوط النظام السابق واحتلال العراق.

والسؤال هو: إذا كان العنف سلوكاً مكتسباً عند كل الشعوب ويمكن ملاحظته وقياسه، فهل إنّ مظاهر العنف في المجتمع العراقي أكثر بروزاً من غيره من المجتمعات؟ وما هي الأسباب والدوافع التي تقف وراءه؟ وهل أنّ الظروف الموضوعية والذاتية التي تحيط به، وكذلك نمط الثقافة وسمات الشخصية الاجتماعية والنفسية لها دور في ذلك؟! الإجابة على هذه التساؤلات، تحيلنا إلى فهم وتفكيك وتحليل الظروف الموضوعية والذاتية، وكذلك البيئة الفكرية والمجتمعية التي أسهمت في تشكيلها والبحث عن الدوافع الظاهرة والخفية التي تختفي وراءها.

إنّ عدم الاستقرار وشيوع أساليب مختلفة من الاستبداد والقهر والقمع من الحكومات المتعاقبة، والإرهاب الدموي من قبل «داعش» وايديولوجيته التكفيرية التي قادت البلاد إلى أتون صراعات أهلية مدمرة... كل هذه الفوضى أحدثت تمثلات فكرية جوهرية طالت الذهنية العراقية المستلبة أصلاً، وغيّرت طرائق التفكير والعمل والسلوك لفئات كبيرة من العراقيين. كما أحدثت اختلالات في المنظومة الاجتماعية والثقافية والقيمية، مثلما طالت شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تفككت خلال العقود الأخيرة.

وإلى جانب الاستبداد والعنف والإرهاب، هناك عنف اجتماعي يظهر في ضروب من القمع الذي يمارس جسدياً واجتماعياً ونفسياً بصورة مخفية ومسكوت عنها، أو حين يمارس تحت شعارات دينية واجتماعية وأخلاقية، بخاصة ما يمس المرأة والضعيف والقاصر والمعوق، أو الاتهام بالباطل والشتم والكفر بالمقدسات، والعنف الاقتصادي والسياسي واستشراء الفساد الإداري في مرافق الدولة والمجتمع. وليس هناك من يجرؤ على محاسبة الفاسدين والمرتشين، بحيث تحول مفهوم السلب والنهب إلى ظاهرة اجتماعية خطيرة.

إنّ بناء المجتمع المدني لا يعني بناء مؤسسات مدنية فحسب، بل تكوين «جماعات ضغط» مهمتها مراقبة مؤسسات الدولة وتحديد الحقوق والواجبات والمصالح المرتبطة بها، بمعنى آخر أن لا تكون ايديولوجية، وأن تكون متحررة من المصالح والغايات ومن تدخل الدولة ومؤسساتها، وفي مقدمة ذلك فصل ما هو مدني عما هو سياسي. إنّ بناء المجتمع المدني المنشود ليس معطى جاهزاً، وإنما هو سيرورة اجتماعية - ثقافية لا تنمو ولا تتطور إلا في فضاء من الحرية والتعددية والديمقراطية. وهو كفيل بإعادة الاعتبار إلى الإنسان العراقي المكسور وإعادة تشكيل هويته الوطنية الموحدة.

■ لكن في المقابل الشخصية العراقية عبر التاريخ، كانت صعبة المراس لا ترضى بقائد، هل تعتقد أنّ هذا سبب التناحر اليوم؟

- الشخصية العراقية بطبيعتها طيبة ومسالمة ومتوازنة في سيكولوجيتها، غير أنّ المآسي والمحن والحروب والكوارث التي عاشتها على مرّ التاريخ جعلتها مستلبة، ماضوية قلقة وعنيدة وصعبة المراس. هذه الخصائص ليست طبيعية فيها، بل مكتسبة، مما وضع العراقي في دوامة من الصراع والتناحر لا يرضى بأي قائد أو رئيس، لأنّ أغلب الرؤساء الذين حكموا العراق كانوا استبداديين. ومن الملاحظ أنّ أغلب قادة العراق هم من الأجانب أو من الأطراف، كما حدث عند تأسيس الدولة العراقية الحديثة في مطلع القرن الماضي. فشل العراقيون في اختيار ملك لهم من داخل العراق، فتم تنصيب الملك فيصل الأول ملكاً، وهو عربي لكنه غير عراقي، وهذا دليل على عجزهم عن اختيار قائد لهم من داخل العراق.

من جهة أخرى، يلاحظ المرء أنّ عدداً من العراقيين يدعون اليوم الى رجل قوي «ديكتاتور» لحكم العراق بعد الفوضى والمآسي والأزمات المتتالية، وبعد أن يئسوا من وصول حاكم عادل الى سدة الحكم بخاصة بعد سقوط النظام السابق بيد قوات الاحتلال.

إنّ ترقب ظهور كاريزما في هذا الجو غير الطبيعي، ليس غريباً. في مرحلة الفوضى والإرهاب والضياع، تجد بعض المكونات الاجتماعية والأحزاب السياسية والدينية والطائفية تربة خصبة للتعبير عن نفسها والقيام بدور سياسي فعال، وظهور «كاريزمات» تعتقد فئات من الجماهير بأنها تقودها نحو الخلاص. وقد يستغل بعضهم ممن ابتلي بـ «مرض الطفولة الثوري» مثل هذه الظروف العصيبة ليعلن ولادة «كاريزما» جديدة، ويعبئ الشباب بالآمال، ليمتص جزءاً من غضبهم ويجعل من نفسه «بطلاً» يحلم بقيادة «الجمهور»، كما حدث في السنوات الأخيرة.

السوسيولوجيا تبيّن لنا بأن الذوبان في الجماعة أو القبيلة أو الطائفة والتماهي فيها، يعني اتخاذها «هوية» تحصن الفرد من الذوبان في غيرها وجعلها ملاذاً وملجأ تحميه من المخاطر الداخلية والخارجية، وتكون في الوقت نفسه وسيلة من وسائل تصريف العدوانية المتراكمة من الإحباطات الوجودية، إلى جانب أهدافها الشخصية والمصلحية. في هذه الوضعية من العجز والنكوص، غالباً ما يتجه الأفراد نحو زعيم أو قائد أو «مهدي» يقودهم نحو الخلاص، خاصة في أوقات الحروب والمحن. كما أنّ الصدمات الحادة التي تعرضت لها الشخصية العراقية وما رافقها من انتكاسات ومآس وحروب وحصار، كرّست مفاهيم ومواقف وسلوكيات جديدة مسخت شخصية العراقي، وفي مقدمتها الولاء المطلق للأقوى. وهذه بدورها تكرس ظاهرة «عبادة الشخصية».

وتأليه الفرد ليس جديداً في العراق، ربما هو إرث يعود إلى حضارة وادي الرافدين القديمة. ورغم مما وصلت إليه حضارة سومر وبابل واكد من تطور ورقي، فإنّ تأليه الفرد وعبادته كانا ملازمين لعبادة الآلهة. فالبابليون وكذلك المصريون القدماء، يعتبرون الإله راعياً يقودهم إلى المرعى ويتولى إطعامهم والسهر عليهم عندما ينامون. لذا، جمعوا بين الإله والملك في شخصية واحدة، وهذا يعني أيضاً تقلص الوظائف الاجتماعية التي كانت من نصيب الإله فقط، وتحولها إلى الملك بإرادة إلهية مقدسة يبرر بها استحواذه على جميع المؤسسات في المجتمع واحتكاره السلطة لنفسه. وهو ما يسهل بالتالي تأليه المجتمع له والتحول بالتدريج الى عبادة الشخصية.

لعل ثقافة العنف والاستبداد التي تسربت الى نسيج الشخصية العراقية، لا تنزل إلى مستوى الممارسة العملية إلا اذا سنحت الفرصة بذلك، ولا يظهر المستبد الطاغي في مجتمع ما، إلا إذا كان هناك من يذعن لنظام هيمنة وتسلط أبوي - استبدادي.

والحقيقة، فإنّ العراقيين عبر التاريخ جرّبوا حكم الطغات الذين جرّوا البلاد والعباد إلى حروب مدمرة وإلى استبداد وقمع وتدمير.

■ كيف تحدد العلاقة بين المدنية والدين كمفهومين؟

- هناك نقاط التقاء وافتراق بين المدنية والدين. الدين تجربة روحية تربط بين الله والإنسان، وبين ما هو روحي مقدس وغيبي مطلق. هذه التجربة تنظم حياة الإنسان الروحية، وتدعوه لفعل الخير والصلاح. أما المدنية، فتنظم حياة الإنسان الدنيوية، بغض النظر عن العقيدة الدينية، وتضمن للمواطنين حقوقهم من دون تمييز على أساس المواطنة.

الدين، في الواقع، متجذر في الوعي الاجتماعي ومؤثر بطرائق العمل والتفكير والسلوك، وليس سهلاً نفيه وإلغاء دوره من المجتمع.

ولعالم الاجتماع والفيلسوف الألماني يورغن هابرماس رأي مفيد في هذه العلاقة، إذ يعتبر أنّ الدين مسألة خاصة بالفرد، إلا أنّه يحاول في الوقت ذاته تشكيل علاقة بين العلم والدين، وانعكاس تلك العلاقة على الممارسة السياسية. وبسبب الإقصاء والتهميش للفكر الديني، وضع هابرماس نظرية للمجتمع ما بعد العلماني التي يتلمس فيه استمرارية الوعي الديني في محيط يستمرّ بعلمنة نفسه وضرورة مشاركته في الفكر الديموقراطي المتنور. فهو يدعو إلى تصالح بين العقل والدين، فالدين وحده هو الذي يمكنه أن يساعد الحداثة المتعثرة وإخراجها من المأزق الذي أوقعت نفسها فيه. كما يدعو الى «لغة دينية» وتصوّر جديد عن العالم للتعامل مع المؤمنين، لأنّ بعضهم كان قد فقد الأمل، حتى أولئك الذين فقدوا العلاقة بالدين من العلمانيين وغيرهم، بعدما أصبح الدين مصدر خطر أمني، وترك الإرهاب بصماته على الجميع في كل مكان في العالم.

محاولة هابرماس إعادة بناء الدين ووضعه في سياق المجال العام وربطه بالتطور المجتمعي والعقل، لإحداث الانسجام بين الأيديولوجيات المتصارعة والمعتقدات الدينية المتنافسة، التي يجب عليها أن تتحاور لا أن تتصارع، وهو ما يعود بالخير على الجميع.

نظرة هابرماس العقلانية تنتصر للدين العاقل الذي يؤمن بالتسامح وينبذ العنف والإرهاب والاضطهاد باسم الدين.

■ التجديد في المجتمعات العربية لا يزال نخبوياً، الثقافة العامة مثقلة بإرث الماضي، إلى أي مدى يمكن تجسير الهوة بينهما؟

- يمكننا القول بأنّ الثقافة العربية أبوية ماضوية، وصوتية محافظة، وتقليدية ظلت تتحكم بالبنى الفكرية والاجتماعية التقليدية، ولم تشهد تجديداً وتحديثاً حقيقياً على مستوى الخطاب الثقافي والاجتماعي والديني والسياسي. والحداثة لم تمس سوى الشعر، الأداة المعرفية الوحيدة، والخطاب الادبي السائد الذي يعكس شخصية العربي وذهنيته. فالشعر، كان ولا يزال «ديوان العرب». لذلك يمكننا القول بأن ليس هناك تجديد اجتماعي وثقافي وتقني. كما أنّ الثقافة العربية لا تعرف النقد. النقد الذي يمارسه بعض الكتّاب، ليس نقداً لمعرفة الذات وتغييرها، لأنّ الذات العربية ما زالت لم تألف النقد، باعتباره الأداة التي يمكنها شحذ الفكر وتحريك الطاقات الكامنة وإبراز عيوب طرائق التفكير والعمل والسلوك، وبالتالي تطوير الخطاب الثقافي العربي. وإذا اختزلت الحداثة في الشعر وأغلقت أبوابها عليه، فمعنى ذلك عدم وجود حداثة أخرى عند العرب، لا حداثة فلسفية أو علمية أو تقنية. خلال القرون الماضية، أنجبت الأمة العربية مئات الشعراء، لكنها لم تنجب فيلسوفاً واحداً مثل ابن رشد أو أديباً موسوعياً مثل الجاحظ أو فيلسوفاً اجتماعياً مثل ابن خلدون. ويعود ذلك إلى أنّ الثقافة العربية التقليدية ما زالت قوية وفاعلة تستطيع الوقوف أمام أي عنصر تحديثي. كما يعود ذلك إلى الدور الذي تقوم به في تشكيل الأنا والـ «نحن» وتضخيمها إلى درجة أصبح الشعر بمثابة المكون الذهني والخيالي للذات العربية.

ماضوية الثقافة العربية هي أساس عدم دخولنا الحداثة من أبوابها الأمامية. ما زالت أسئلة العقل والحرية والتنوير والنقد مغلقة بسبب شيوع الاستبداد والنزعة الأبوية البطريركية والسلوكيات اللاعقلانية التي أفسحت في المجال أمام نمو الخطاب الاصولي المتطرف وايديولوجيته التكفيرية، واتساع ثقافة العنف والإرهاب والعنف الاجتماعي على جميع المستويات.

الكاتب في سطور

ولد ابراهيم الحيدري في مدينة الكاظمية (بغداد) عام 1932 حوّي أكمل الدراسة الابتدائية والثانوية. التحق بـ «جامعة بغداد - قسم الاجتماع»، وحصل على شهادة البكالوريس في الآداب عام 1962. أكمل دراسته العليا في المانيا، وحصل على دكتوراه فلسفة في الانثولوجيا الاجتماعية من «جامعة برلين الغربية» عام 1974. عمل استاذاً محاضراً في جامعات بغداد وبرلين وعنابة في الجزائر. ألّف وترجم العديد من الكتب والبحوث النظرية والميدانية باللغات العربية والالمانية والانكليزية. من أعماله: «صورة الشرق في عيون الغرب»، «تراجيديا كربلاء - سوسيولوجيا الخطاب الشيعي»، «النظام الابوي واشكالية الجنس عند العرب»، «النقد بين الحداثة إلى ما بعد الحداثة»، «سوسيولوجيا العنف والإرهاب».

> **أين علماء الاجتماع العرب مما أنتجه الربيع الدامي من حروب وكوارث؟**